الفصل الثامن

أخلاقيات الفن

والدور التربوي للفنون بين أفلاطون وأرسطو

أخلاقيات الفن

والدور التربوي للفنون بين أفلاطون وأرسطو

تمهيد :

إن للفن دورا كبيرا فى إثراء حياة البشر، وهو من السمات الحضارية المميزة لأى أمة من الأمم، إذ يعد مرآة عاكسة لقيم وعادات الشعوب. ومن هنا كان الاهتمام المتزايد به من قبل الفلاسفة؛ حيث أنهم اكتشفوا منذ فجر الحضارة الإنسانية ما للفن من دور كبير فى التربية الأخلاقية للمواطن فى أى دولة من الدول وتحت أى نظام سياسى ترتضيه هذه الدولة أو تلك.

ولا شك أن فلاسفة اليونان وخاصة أفلاطون وأرسطو كانوا من أوائل من اهتم بفلسفة الفن عموما وبالدور الأخلاقى الكبير الذى يلعبه الفن فى صقل شخصية المواطن اليونانى وفى تربيته على القيم الأخلاقية والدينية المنشودة. ومن هنا كان الاهتمام الكبير الذى أولاه كلا من أفلاطون وأرسطو لدراسة الفنون بكافة أشكالها وصورها وبلور كل واحد منهما نظريته الخاصة حول الفن، ورغم الاختلاف بينهما فى كثير من الآراء الجزئية حول الفنون ودور كل منها فى الحياة الأخلاقية والمدنية إلا أنهما معا يتفقان على أن الفن "محاكاة" وإن كان معنى المحاكاة يختلف فى صورته وتطبيقاته حسب المذهب الفلسفى لكل منهما وبحسب مقتضيات وتطبيقات هذا المذهب.

أولاً: نظرية الفن "محاكاة" بين أفلاطون وأرسطو:

تستند نظرية أفلاطون فى الفن عموما على نظريته فى الوجود، تلك النظرية التى ميز فيها بين عالمين؛ العالم المعقول، عالم المُثل والحقائق وهو عالم الوجود الحقيقى، والعالم المحسوس الذى هو فى نظره عالم الظلال والأوهام. وبالطبع فقد كان الوجود الحقيقى هو دائما فى نظر أفلاطون هو الوجود

المعقول، وجود المثل التى تمثل أصل وحدة الأشياء فى عالمنا الأرضى المحسوس هذا، ومن ثم فأى شئ من الأشياء الحسية إنما هو دائما عنده مجرد ظل لأصل حقيقى ينبغى الوصول إليه إذا ما أردنا معرفة حقيقته وأصله. إن عالم "المثل" إذن هو عالم الوجود الحقيقى، وما الأشياء فى هذا العالم المحسوس إلا ظلال. والظلال بالطبع لا تساويه ولا تحاكيه وإن كانت تشبهه.

وفى ضوء هذه النظرية للوجود الحقيقى عند أفلاطون، كانت نظريته الفنية التى ترفض ما كان شائعا من فنون وتنتقدها جميعا على أساس أنها فنون تحاكى هذه الأشياء الطبيعية فى العالم المحسوس ولا تحاكى أصلها فى العالم الحقيقى، عالم المثل، عالم المعقولات.

وقد أوضح أفلاطون نظريته فى الفن فى الكتاب العاشر من محاورة "الجمهورية" من خلال أمثلة عديدة بين من خلالها طبيعة "المحاكاة"؛ فإذا ما نظرنا مثلا إلى الأشياء المصنوعة مثل هذا السرير سنجد كما يقول أفلاطون "أن هناك ثلاثة أنواع من الأسرة، أحدها يوجد فى طبيعة الأشياء وهو لا يوصف إلا بأنه من صنع الله. وهناك نوع ثانى من صنع النجار، ونوع ثالث من صنع الرسام"[1]. أما الأول فهو الأصل الواحد الذى صنعه الله ولم ولن يصنع غيره، أما الثانى فقد صنعه النجار، أما الرسام فهو مجرد مقلد لما صنعه الأول والثانى.

والسؤال الذى يوضح طبيعة المحاكاة التى يبغيها أفلاطون للفنان هو كما طرحه أفلاطون نفسه: هل الموضوع الذى يحاكيه الرسام هو ذلك الموضوع الواحد الموجود فى طبيعة الأشياء (والمقصود هنا "مثال" الكرسى) أم ما ينتجه الصناع (أى ما ينتجه النجار)؟!

ولما كانت الإجابة المباشرة على ذلك هو أنه يقلد أو يحاكى ما صنعه النجار، فإن هذا فى رأى أفلاطون فن ردئ لأنه يقوم على التقليد لما هو ظاهر من الشئ الذى صنعه صانع؛ وما ذلك إلا لأن "الفن القائم على المحاكاة بهذا المعنى– بعيد كل البُعد عن الحقيقة"[2]. إن كل الأعمال الفنية السائدة فى عصر أفلاطون شعرا كانت أو رسمًا إنما هى صنعة مقلدين وليست صنعة فنانين مبدعين، لأن هذه الأعمال

([1]) أفلاطون، محاورة "الجمهورية" ك 10- فقرة 597، الترجمة العربية للدكتور فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة 1985م، ص532.

([2]) نفسه (ك10- فقرة 599)، الترجمة العربية، ص535.

الفنية إنما تنتمى للمرتبة الثالثة بالنسبة للحقيقة!

إن محاكاة ما هو موجود بالطبيعة إذن إنما هى أعمال تشوه وتزيف أكثر من كونها أعمالا إبداعية تحاذى الحقيقة وتدرك كنه وما هية ما تحاكيه. إن الفنان الحقيقى فى رأى أفلاطون هو "الذى يهتم بالحقائق لا بمحاكاتها"[3].

وهنا ينبغى التوقف لتوضيح أن ثمة معنيين للمحاكاة إذن عند أفلاطون؛ فهناك محاكاة تعتمد على معرفة الحقائق ذاتها وهذه هى سمة الفنان الصادق الذى يلتزم فى فنه بقيم الحق والخير والجمال كما ينبغى أن يكون. وهناك محاكاة لا تصحبها تلك المعرفة بالحقائق الأصلية وإنما تكون محاكاة لظلال هذه الحقائق الأصلية فهى إذن ليست محاكاة للأصل وإنما هى نقل يعتمد على التقليد والتمويه الذى يخلو من التعبير عن القيم السامية ومن ثم لا يعتبر هذا النوع الثانى من المحاكاة فنا حقيقيا بل تشويها وتزييفا[4].

وعلى هذا الأساس يتضح أن أفلاطون فى ضوء نظرية عن المحاكاة يميز بين نوعين من الفن؛ الأول يأخذ بالمحاكاة السطحية أى بالمعنى الشائع الذى أشرنا إليه فيما سبق للمحاكاة، والثانى فن يأخذ بمحاكاة مستنيرة تنطوى على علم من يمارسها بما يجب أن يحاكيه من مثل الخير والحق والجمال. وهذه المحاكاة لا توجد إلا لدى الفنان ذى الثقافة الفلسفية الواسعة، ربيب آلهة الفن وربات الشعر Muses مؤثر الجمال الذى يحسن التعبير عنه فيخرج فنه محققا للخير والجمال على السواء[5].

إن الفن الجيد عند أفلاطون إنما ينبغى أن يكون مستندا على محاكاة الحقيقة، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الفنان من ذلك النوع المثقف القادر على إدراك الحقيقة واستلهامها فضلا عن أنه من أولئك الملهمين الذين يلتمسون الإبداع من ربات الفن أو ربات الشعر، فالفنان الحقيقى عند أفلاطون يصيبه نوع من الهوس (أو الإلهام) الذى "إن صادف نفسا طاهرة رقيقة أيقظها فاستسلمت لنوبات تلهمها بقصائد وشعر تحي به العديد من بطولات الأقدمين وتقدمها ثقافة يهتدى بها أبناء المستقبل"[6].

([3]) د. مصطفى النشار: أفلاطون والفن، ضمن كتاب "أعلام الفلسفة- حياتهم ومذاهبهم، نشرة دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان- الأردن، 2011م، ص96.

([4]) د. أميرة حلمى مطر، فلسفة الجمال، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة، 1984م، ص45.

([5]) نفسه.

([6]) أفلاطون ، محاورة " فايدروس" (245- أ، ب)، الترجمة العربية للدكتورة أميرة حلمى مطر، دار المعارف بالقاهرة،

أما الفنان الذى لم يمسه هذا الهوس الإلهى "ظنا منه أن مهارته [أى صنعته الإنسانية) كافية لأن تجعل منه فى آخر الأمر شاعرا، فلا شك أن مصيره الفشل؛ ذلك لأن شعر المهرة من الناس سرعان ما يخفت إزاء شعر الملهمين الذين مسهم الهوس"[7].

وإذا ما انتقلنا من رؤية أفلاطون للمحاكاة ودورها فى الفن، إلى رؤية أرسطو سنجد أن الأمر قد اختلف قليلا؛ حيث أن براعة أرسطو المنطقية قد جعلته يحرص أكثر على تحديد المصطلح؛ فبعد أن كانت المحاكاة عند أفلاطون– كما رأينا– مصطلحا واسعا مبهما يشمل كل أنواع الإبداع سواء فى الإبداع العقلى الفلسفى أو فى الإبداع الفنى، قصر أرسطو مصطلح المحاكاة للتعبير عن الفنون فقط، بل خصه بالتعبير عن الفنون الجميلة تمييزا لهما عن باقى الفنون التى غايتها إنتاج المصنوعات التى يستفيد منها الإنسان[8].

لقد اعتبر أرسطو بداية "أن المحاكاة أمر فطرى موجود للناس منذ الصغر، وأن الإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة وأنه يتعلم ما يتعلم بطريقة المحاكاة"[9]. ومن الطبيعى التمييز بين محاكاة الإنسان العادى ومحاكاة الفنان؛ فالفنان إنسان مبدع لا يحاكى الأشياء المحسة كما هى أو يحاكى حقائقها كما كان عند أفلاطون، وإنما المحاكاة الفنية المقصودة عند أرسطو هى فى الأساس محاكاة للشخصيات والانفعالات والأفعال الإنسانية، فهى إذن ليست مجرد محاكاة للعالم المحسوس بأشيائه وكائناته الحية والجامدة، بل تتعدى ذلك لتكون محاكاة لدنيا الحياة العقلية داخل الإنسان[10].

لقد طور أرسطو إذن معنى المحاكاة فلم يجعلها مجرد محاكاة للطبيعة الخارجية فقط، بل جعلها كذلك محاكاة للطبيعة الداخلية للإنسان بما فيها من معاناة وإحساسات ومشاعر.

وللمحاكاة عند أرسطو وسائل تختلف باختلاف صورة الفن الذى يبدع فيه الفنان ومجاله؛ وهذه الوسائل عنده ثلاث: الإيقاع Rhythm، اللغة Language والنغم Tune. وهذه الوسائل الثلاث تشكل

الطبعة الأولى 1969م، ص68.

([7]) نفسه.

([8]) د. أميرة حلمى مطر، فلسفة الجمال، سبق الإشارة إليه، ص57.

([9]) أرسطو طاليس: كتاب الشعر، الترجمة العربية للدكتور شكرى عياد، دار الكاتب العربى للطباع والنشر بالقاهرة 1967م، ص36.

([10]) د. زكى نجيب محمود: تقديم الترجمة العربية السابق الإشارة إليها لكتاب أرسطو "الشعر"، ص(و).

فى رأيه جوهر الشعر بمعناه الواسع؛ حيث أن الشعر بهذا المعنى الواسع تتولد منه أو ترتد إليه عدة فنون تتبدى حينما نرى صور التداخل بين الوسائل الثلاث السابقة للمحاكاة (الإيقاع- اللغة- النغم) تقودنا إلى خمس فنون هى:

1- فن الرقص إذا كنا أمام الإيقاع وحده.
2- فن النشر إذا كنا أمام اللغة وحدها.
3- أما إذا اجتمع الإيقاع واللغة معا، يكون الشعر بنوعيه شعر الملاحم، وشعر المدح أو المراثى.
4- أما إذا اجتمع الإيقاع والنغم معا، كان فن الموسيقى (موسيقى الآلات).
5- أما إذا اجتمع العناصر الثلاثة (الإيقاع- اللغة- والنغم) كان الشعر الغنائى وكانت التراجيديا والكوميديا[11].

وقد لخص أرسطو نفسه رؤيته لهذه الفنون السابقة بقوله " فكذلك الأمر فى الفنون التى ذكرناها، فجميعها تحدث المحاكاة بالوزن (النغم)، والقول (اللغة) والإيقاع، إما بواحد منها على الانفراد أو بها مجتمعة"[12].

ولما كانت المحاكاة عند أرسطو كما قال هى محاكاة للناس فى أفعالهم وانفعالاتهم، فهؤلاء المحاكون (أى الفنانون) بالضرورة إما أخيار أو أشرار وكل يحاكى من على شاكلته؛ فإن كان خيرا فهو يحاكى الخير، وإن كان ميالا إلى الشر فهو يحاكى الشر. وقد يصور الفنان الناس خيرا مما هم عليه فعلا أو أسوأ مما هم عليه فعلا أو قد يحاكيهم كما هم تبعا لميوله وانفعالاته هو الآخر[13]. وعلى ذلك تكون المحاكاة إنما هى محاكاة لأخلاق البشر وأفعالهم الظاهرة فى واقع الحال.

وثمة صورة أخرى للمحاكاة من حيث الموضوع، فموضوعها ليس البشر وأفعالهم فقط، بل أيضا ثمة محاكاة للطبيعة وقد قال أرسطو فى هذا الصدد "أن الفن يحاكى الطبيعة"، وإن كان علينا أن نفهم من هذه العبارة أن الفن عند أرسطو ليس محاكاة حرفية أو فجة للطبيعة، فعلم الفنان لا ينبغى أن يقتصر على نقل ما يراه فى الواقع نقلا حرفيا وإنما الفن هنا هو عملية إبداع وخلق لما يتصوره الفنان كمالا لهذه الطبيعة،

([11]) انظر: Ross (S.D.): Aristotle, Meuthuen & Co. Ltd, London, Reprinted 1971, P. 277.
([12]) أرسطو طاليس: نفس المصدر السابق (1)، ص28.
([13]) انظر: د. مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى- أرسطو طاليس ومذهبه الفلسفى ونظرياته العلمية، الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة 2013م، ص224.

فالفنان يضفى على الطبيعة صورة من خياله وإبداعه. وعموما فإن لفظة "الطبيعة– Nature" لا تعنى فى فلسفة أرسطو مجرد كائنات الطبيعة، بل تعنى فى المقام الأول القوة الباطنة المحركة لهذه الكائنات حركة تلقائية تنشد بها كمال صورها؛ ومن ثم فإن الفن حينما يحاكى الطبيعة إنما يحاول بيان هذه الصورة الباطنة وتحقيق كمالها. فالفن يبحث دائما عن المثل الأعلى ومن ثم فهو ليس محاكاة للطبيعة كما هى عليه بل يتجاوزها إلى النموذج[14]. ومن هنا كان قول أرسطو عن الشعر فى كتاب "الشعر" أنه أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ؛ لأن الشعر أميل إلى قول الكليات على حين أن التاريخ أميل إلى قول الجزئيات، والكل هو ما يتفق لصنف من الناس أن يقوله أو يفعله فى حال ما على مقتضى الرجحان والضرورة"[15]. وهكذا الحال فى كل الفنون الجميلة عند أرسطو أنها سعى إلى تصوير ومحاكاة البشر والطبيعة بما ينبغى أن تكون عليه، وبما يحقق كمالها الذى تسعى إليه. فالفنان ليس مجرد ناقل للواقع سواء تعلق بالبشر أو بالأشياء الطبيعية وإنما هو مبدع خلاق ينشد تحقيق المثل الأعلى فى عمله الفنى. وينشد التأثير على المتلقى فيتطهر إما باللذة أو بالألم نشدانا للكمال أيضًا.

ثانيًا: أخلاقيات الفن وتمييز العمل الفنى الناجح:

إن المدقق فى رؤية كل من أفلاطون وأرسطو للمحاكاة ولنظريتهما فى الفن يلاحظ أنهما معا ينشدان الارتقاء بالفنون ليكون لها دورا أخلاقيا وتربويا واضحا فى حياة البشر. ولعل ذلك يتضح إذا ما تساءلنا عن معيار العمل الفنى الجيد عند كليهما؟!

إن أهم معايير العمل الفنى الجيد عند أفلاطون تتمثل فى أمرين هما:

(1) أن يتم العمل الفنى عن طريق اتصال الفنان عن طريق نفسه الملهمة (الهوس الفنى) بالأصل الإلهى لكل ما يحاكيه، أى أن يحاكى الحقائق وليس ظلالها.

(2) أن يكون هادفا إلى الخير. وهذا ما يشير إليه أفلاطون بعبارة واضحة فى "الجمهورية" حيث يقول أنه يتعين علينا مراقبة عمل الشعراء ونحملهم على التعبير فى أشعارهم عن مظاهر الصفات الحميدة وحدها، وألا نمنعهم من ممارسة عملهم فى مدينتنا (يقصد المدينة المثالية) منعا باتا ..

([14]) د. أميرة حلمى مطر، نفس المرجع السابق، ص62.
([15]) أرسطو طاليس: كتاب الشعر (9)، الترجمة العربية، ص64.

والواجب أيضا مراقبة عمل بقية الفنانين ونحرم عليهم محاكاة الرذيلة والتهور والوضاعة والخشونة سواء فى تصوير الكائنات الحية، وفى العمارة، وفى كل ضروب الصور"[16].

وعبر عنه كذلك فى عبارة قاطعة فى آخر محاوراته "القوانين" حينما قال "أنه يجب استعمال كل طريقة لصيانة أولادنا من الرغبة فى إنتاج نماذج مختلفة من الرقص أو الغناء مثلما نمنع من يمكن أن يحاول إغرائهم بتشكيله من اللذات"[17].

والطريف أن أرسطو يتفق مع أفلاطون فى إقرار هذين المعيارين لتمييز الأعمال الفنية الجيدة عن الرديئة، مع مراعاة الاختلاف المذهبى بينهما؛ فبينما يرى أفلاطون ضرورة أن يحرص الفنان على محاكاة الحقيقة بالاتصال بالعالم الإلهى عالم المثل والحقائق الأبدية المعقولة، نجد أرسطو هو الآخر يرى ضرورة أن يحرص الفنان على محاكاة الحقيقة، والحقيقة بالمفهوم الأرسطى موجودة هنا فى عالم الواقع المحسوس، كل ما هنالك أن أرسطو يتحدث كما أشرنا فيما سبق عن ثلاث درجات من المحاكاة؛ أولهما المحاكاة المقلدة للفعل أو للأشياء كما هى، وثانيها المحاكاة لها كما تقال أو كما تظن، وثالثها محاكاتها كما ينبغى أن تكون. وبالطبع فهو يفضل النوع الثالث من المحاكاة، إذ على الفنان أن يمثل أو يصور الأشياء كما ينبغى أن تكون على أن لا يكون التصوير أسمى من الحقيقة المنشودة[18].

وبنفس الصورة يوافق أرسطو مع أفلاطون على ضرورة مراعاة البُعد الأخلاقى فى العمل الفنى، إذ أن العمل الفنى وبالذات التراجيدى- فيما يؤكد أرسطو- ينبغى أن يكون محاكاة لما هو شريف وخير، إذ أن الصلة وطيدة لديه بين الجمال فى العمل الفنى وبين الخير الذى يعبر عنه[19]. وقد أكد أرسطو على هذين المعيارين لتقويم العمل الفنى حتى فى كتاب "السياسة" حيث قال بوضوح أنه لا يقبل من الأعمال الفنية إلا "ما يصلح منها لتثقيف العقل وتزكية النفس معا"[20]. وانتقد أولئك الذين يتخذون من أنواع معينة من

([16]) أفلاطون: الجمهورية (401)، الترجمة العربية السابق الإشارة إليها، ص271- 272.

([17]) أفلاطون: "القوانين" (ك (7))، الترجمة العربية لمحمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة 1986م،ص 333.

([18]) انظر: أرسطو طاليس: كتاب الشعر (25)، الترجمة العربية، ص144. وأيضا: د. مصطفى النشار: نفس المرجع السابق، ص234.

([19]) انظر: نفس المرجعين السابقين، نفس الصفحة.

([20]) أرسطو طاليس: كتاب "السياسة" (ك5-ب 7- فقرة 4)، الترجمة العربية لأحمد لطفى السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة 1979م، ص308.

الفنون لمجرد تضييع الوقت والاستمتاع باللذات. وقد أفاض أرسطو كثيرا فى بيان التفاصيل فى هذا الصدد مميزا بين ما يصلح من الأعمال الفنية والآلات الموسيقية وبين ما لا يصلح منها فى التربية الأخلاقية للنشئ ولرجال الدولة الأحرار، فهو يوافق مثلا على قول من يقولون أنه "إذا كانت هناك استراحة خليقة بالرجل الحر فإنها الموسيقى"[21]. والحقيقة أن كلا من أفلاطون وأرسطو قد اهتما بشدة ببيان أثر العمل الفنى على المتلقى ودور أى من هذه الأعمال الفنية فى التربية الأخلاقية للبشر صغارا كانوا أم كبارا. ودائما ما كان تقييمهما للفنون فى ضوء هذا التأثير فإن كان خيرا فهو عمل فنى جيد، وإن كان شرا فهو عمل فنى سيئ لا يليق. ولم يكن هذا الأمر يقتصر فى نظرهما على الفنون الجميلة فقط، بل أيضا على كل ما من شأنه التأثير على الجمهور ولنأخذ مثلا على ذلك فن الخطابة، فقد اعتبر أفلاطون أن الخطابة الجيدة هى الخطابة الفسلفية إذ "أن من يبغى أن يكون فى يوم ما خطيبا موهوبًا فعليه أن يعرف بالضرورة ما هى الصور المختلفة التى تكون النفس عليها.. وبعد تمييز أنواع النفوس المختلفة يأتى دور الأحاديث فلها أنواع أيضا، ولكل نوع منها عدد معين ولكل من هذه الأنواع صفات خاصة تجعلهم يتأثرون بحديث معين دون غيره.. وعندما ننتهى من التفكير الكافى فى هذه التصنيفات ينبغى علينا اعتبار ما هى عليه عند التطبيق العملى مع تتبعها بانتباه، إذ بغير هذه الطريقة لن يحصل الخطيب على ما يريد من نتائج" ولن يكون (ما يقدمه) فنا على الإطلاق"[22].

إن على الخطيب إذن لكى يصبح عمله عملا فنيا جيدا ألا ينكمش فى حدود معينة، بل عليه دائما أن يتطلع إلى السماء وأن يمد بصره إلى آفاق أبعد من حدودها. وعليه بالتالى أن يستعين بالفلسفة إذا ما أراد بلوغ مستوى الجودة والإتقان فى عمله الخطابى[23].

أما أرسطو فقد اعتبر هو الآخر الخطابة فنا وجعلها أيضا جزءا مرتبطا لفهم النظام الفلسفى، فقد اعتبرها فن أصيل بقدر ما تنجح فى الإقناع بالحقيقة التى تعبر عنها والحقيقة الفنية. وهى فى رأيه ليست

([21]) نفسه (ك5- ب2- فقرة 6)، الترجمة العربية، ص294.
([22]) أفلاطون: فايدروس (271 د- هـ، 272)، الترجمة العربية، ص118.
([23]) مقدمة ليون روبان لترجمته الفرنسية لمحاورة "فايدروس"، نقلتها إلى العربية د. أميرة حلمى مطر فى مقدمة ترجمتها لذات المحاورة، مصدر سبق الإشارة إليه، ص34.

نقلا حرفيا للواقع ولكنها نوع من التفسير والخلق الذى يكسبها نظاما ومعقولية[24].

وقد اعتبر أرسطو أن الخطابة تعد فنا شاملا مهما حيث "أن الريطوريقا (الخطابة) قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأمور المفردة. وهذا ليس عمل شيء من الصناعات الأخرى؛ لأن تلك الآخر إنما تكون كل واحدة منها معلمة ومقنعة فى الأمور تحتها. فالطب يعلم ويقنع فى أنواع الصحة والمرض، والهندسة فى الأشكال التى تحدث فى الأجسام، والحساب فى ضروب الأعداد وكذلك سائر الصناعات والعلوم الأخرى. أما الريطوريقا فهى التى تتكلف الإقناع فى الأمر يعرض كائنًا ما كان"[25].

ولما كانت الخطابة فن شامل بهذا المعنى الذى يتطلب معرفة بحقائق الكثير من الفنون والصناعات والعلوم الأخرى، حتى يكون قول الخطيب فيها مقنعا، فإن وسائل الخطيب للإقناع ينبغى أن تتسم وتقوم على أسس ثلاث هى:

(1) الفهم الواعى Phronesis وهذا يأتى من خلال القدرة على استخدام الجدل بطريقة منطقية منظمة.

(2) الفضيلة arête وتتحقق لديه من خلال فهم الطبيعة الإنسانية والنفع الإنسانى فى أشكاله المختلفة.

(3) القبول والاستحسان من جانب السامعين ولا يمكن لهذا أن يحدث إلا بفهم نفوس وعواطف السامعين عن طريق معرفتها جيدا أو معرفة أسبابها ووصفها والبحث عن أفضل وسيلة لتحريكها وإثارتها[26].

إن اشتراط أرسطو فى الخطابة الجيدة للمعرفة والفهم الواعى للحقيقة، وكذلك اشتراطه محاذاة الفضيلة كوسيلة للإقناع إنما يعنى إصراره على الفضيلة وخيرية القول، فالخطيب النبيل يعرف الشعور الخير والأخلاق النبيلة والرغبة الحسنة نحو سامعيه[27].

([24]) انظر: علاء صابر، الخطابة عند اليونان، نشره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة 2010م، ص55.

([25]) أرسطو طاليس: الخطابة (م1- 250- 1355ب)، الترجمة العربية القديمة، حققها وقدم لها د. عبدالرحمن بدوى، وكالة المطبوعات بالكويت، ودار القلم ببيروت 1979م، ص9.

([26]) علاء صابر، نفس المرجع السابق، ص56- 57.

([27]) نفسه، ص57- 58.

يقول أرسطو: إن الخير هو الذى يختار من أجل نفسه والذى يختار غيره من أجله، والذى يتشوق إليه الكل من ذوى الحس أو الفهم، فإن الفهم هو الذى يؤتى كل واحد من الناس العلم، وعلى حسب ما يؤتيه الفهم كل واحد من الناس يكون الخير عنده"[28]. تلك هى رؤية أرسطو عموما للخير وأهميته فى كل ما يقوم به البشر وخاصة فى مجال الفن. فالفن خير ونافع فى آن معا، وإن ارتبط فيه هذا بذاك كان هو الفن الحقيقى الذى يسعى إلى إسعاد البشر بإيقاظ ما فيهم من ميل طبيعى إلى الخير والجمال.

ثالثا: الدور التربوى للفن:

ولما كان من المعروف أن أفلاطون وأرسطو كانا من بناة الدول المثالية، فقد ارتبط لديهما الفن بالأخلاق والسياسة فى آن معا، كان من الضرورى أيضا أن يلتزم الفنان أيا كان فنه بالمعايير الأخلاقية فى الفن حتى يمكن السماح بوجود الفن كأداة من أدوات التربية الأخلاقية والسياسية للأفراد فى دول المدن المثالية.

إن إيمان أفلاطون بدور الفن فى التربية بوجه عام يعتبر مسألة لا شك فيها على الرغم من هجومه الشديد على الشعر والشعراء فى الكتابين الثانى والثالث من محاورة الجمهورية. فقد كان هجومه على شعراء عصره المشاهير له أسبابه التربوية الأخلاقية؛ حيث اعتبر أن الشعر بصورته المعروفة عندهم وخاصة لدى هوميروس مثلا له تأثير سيئ على الطبيعة البشرية بما يقدمه لها من نماذج ضارة، ومن تزييف للواقع وتقديم نماذج مشوهة له. فضلا عن أنه يصور الآلهة بصورة غير لائقة حيث يصف هؤلاء الشعراء الآلهة بصفات لو نسبت إلى البشر أنفسهم لما وجدوا فيها يشرفهم إذ تظهر الآلهة لدى هؤلاء الشعراء غيورة، منتقمة، ساخرة، لاهية، عابثة بل خليعة فى بعض الأحيان[29].

ولعل ذلك هو ما دعى أفلاطون إلى أن يقول إجمالا: "إن الآلهة قد أطلقت لنفسها العنان فى كل المعارك التى صورها خيال هوميروس، وذلك مما لا ينبغى أن نسمح به فى جمهوريتنا سواء أكان المفروض أن لهذه القصص معنى أسطوريا أم لم يكن، ذلك لأن الطفل لا يستطيع أن يميز الأسطورى من

([28]) أرسطو طاليس: الخطابة (م1- ف6- 1362أ)، الترجمة العربية، ص27.

([29]) انظر د. فؤاد زكريا، الدراسة التى قدم لها ترجمته العربية السابق الإشارة إليها لمحاورة الجمهورية لأفلاطون، ص160- 162. وراجع أفلاطون: محاورة الجمهورية (ك3، الفقرات 377- 383)، الترجمة العربية، ص238 وما بعدها.

الواقعى. ولا شك أن كل ما يتلقاه ذهنه فى هذه السن ينطبع فيه بعمق لا تمحوه الأيام"[30].

ولكن هل معنى هذا أن أفلاطون قد رفض تعلم فن الشعر إجمالا كما ردد بعض من انتقدوه ؟! الحقيقة أنه أراد فقط من هذا الهجوم على الشعر والشعراء لفت الانتباه إلى الأهمية التى يوليها له كأداة من أدوات التربية الفاضلة، فهو يضيف بعد ذلك فى نهاية الفقرة السابقة التى نقلناها عنه قوله "ولذا كان من أعظم الأمور أهمية أن تكون أولى القصص التى تطرق أسماع الأطفال أمثلة سامية للأفكار الفاضلة"[31].

كما يضيف فى نفس الموضوع قائلا على لسان سقراط لمحاوره أديمانتوس: " إننا ننشئ دولة، ومهمة منشئ الدولة هى أن يصوغ القوالب العامة التى يجب أن يصب فيها الشعراء أقاصيصهم ويضع لهم الحدود التى ينبغى ألا يتعدوها "[32].

إن كل ما يطلبه أفلاطون إذن فى إنشائه لدولته المثالية هو أن توضح الحدود الأخلاقية التربوية التى ينبغى أن يلتزم بها الشعراء وكتاب القصص والفنانون عموما فى تأليفهم حرصا على التنشئة الحسنة لأطفال الدولة. ولهذا فهو يعتذر لهوميروس ومن على شاكلته من الشعراء موضحا لهم أسباب استبعاده لأشعارهم من أن تعمم وتدرس لأبناء دولة المدينة الفاضلة، إنه يعتذر لهم بقوله لمحاوره "وعلينا أن نرجو هوميروس وغيره من الشعراء ألا يغضبوا إذا استبعدنا تلك الأقوال وما شاكلها، لا لأنها تفتقر إلى الجمال الشعرى أو لأنها لا تلقى من الناس آذانا صاغية، وإنما لأنها كلما ازدادت إيغالا فى الطابع الشعرى قلت صلاحيتها لأسماع الأطفال والرجال الذى نودهم أن يحيوا أحرارا"[33].

إن أفلاطون هنا لا يؤمن بالنظرية التى كان يعتنقها البعض منذ زمن أفلاطون وحتى الآن، "نظرية الفن للفن"، لأنه يرى بوضوح أن الفن ينبغى أن يكون له دوره فى التربية الأخلاقية للبشر، هذا الدور الذى يتعارض معه إيغال الشعراء والفنانون وإغراقهم فى الخيال لدرجة ترويج الأساطير عن الآلهة ورسمها فى صورة لا تليق حتى بالبشر كما قال أفلاطون فيما عرضناه سابقا.

([30]) أفلاطون: الجمهورية (ك2- 378)، ص241.
([31]) نفسه.
([32]) نفسه، (339)، الترجمة العربية، ص242.
([33]) نفسه، (ك3- 387)، الترجمة العربية، ص251.

ومثلما انتقد أفلاطون إغراق الشعراء فى الخيال لدرجة رسم صورة هزلية لعالم الآلهة، ينتقد أيضا إغراقهم وإغراق غيرهم من الفنانين فى الدعوة إلى اللذة والحض على ممارسة الرذائل. واستمرت هذه الرؤية النقدية لسائر الفنون عند أفلاطون عن "الجمهورية" حتى آخر ما كتبه فى محاورة "القوانين"، حيث عاد إلى مناقشة نفس الموضوع فى الكتاب السابع من هذه المحاورة المهمة، وعاد إلى مناقشة موضوع التربية للأبناء فى الدولة المثالية التالية فى الأفضلية التى رسم معالمها هنا فى القوانين[34]، عاد هنا ليؤكد على "أنه يجب استعمال كل طريقة لصيانة أولادنا من الرغبة فى إنتاج نماذج مختلفة من الرقص أو الغناء مثلما نمنع من يمكن أن يحاول إغرائهم بتشكيلة من اللذات"[35].

لقد حدد معالم هذه الرؤية للتقويم الفنى الذى يقى الأبناء من الاتجاه بالفن إلى إثارة اللذات أو التعلم على يد من يميلون بالفن من الفنانين إلى ذلك الاتجاه مستفيدا مما كان سائدا فى مصر القديمة من قوانين وتشريعات لتنظيم الفنون الالتزام بدورها التربوى والأخلاقى[36]، حددها بقوله "أولا: إن الأعياد يجب أن تحدد بتصنيف سنوى يرينا أى الأعياد يجب أن نحتفل بها وفى أى تاريخ وتكريما لأى آلهة.. وثانيا: أن تحدد سلطات معينة أى الترنيمات التى يجب أن يتغنى بها فى عيد كل إله وبأى الرقصات يتم بها جمال احتفال اليوم.. وإذا حاول أى رجل إدخال ترنيمات أو رقصات فى أعياد أى إله عما فى هذه القوانين فإن القسيسين (أى الكهنة) من الجنسين ستكون لهم رخصة كل من الدين والقانون فى إخراجه من الاحتفال.."[37].

وقد بالغ أفلاطون فى سرد تفاصيل هذه المراقبة القسرية من قبل رجال القانون والكهنة، كما بالغ فى

([34]) الجدير بالذكر هنا أن لأفلاطون رؤية سياسية للمدينة المثالية تطورت من محاورة = = "الجمهورية" التى قامت على التأكيد على دور الفرد سواء كان رجلا أو امرأة فى بناء الدولة، وعلى نظام تربوى يهدف إلى تربية جيل من الحكام الفلاسفة، إلى محاورة "القوانين" التى قدم فيها نموذجا آخر لدولة مثالية يحكمها "القانون" وليس الفيلسوف، وتقوم على إقرار نظام الأسرة وأن الأسرة وليس الفرد هو مقومها الأساسى. انظر تفاصيل رؤية أفلاطون للدولة المثالية (فى الجمهورية) والدولة المثالية الثانية التالية فى الأفضلية (فى القوانين) فى كتابنا: تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة 2005م، ص49- 67 أو فى كتابنا: مدخل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة بعمان- الأردن 2011م، ص123- 163.

([35]) أفلاطون: القوانين (ك 47 الترجمة العربية لمحمد حسن ظاظا- سبق الإشارة إليها، ص333.

([36]) يمكنك هنا مراجعة بحثنا: صورة مصر فى محاورات أفلاطون، منشور بالكتاب التذكارى للدكتور عبدالغفار مكاوى: إنسانًا وفيلسوفنا وأديبا، تحرير د. مصطفى النشار، مركز الكتاب للنشر بالقاهرة 2014م، ص159- 175.

([37]) أفلاطون: القوانين (ك7)، الترجمة العربية، ص333- 334.

بيان أنواع الفنون التى ينبغى أن تقدم للأبناء لدرجة التمييز مثلا "بين نوعين من الأغانى، ما يناسب الذكور، وما يناسب الإناث.. إذ سيكون علينا أن نمد كلا منهم بما يناسبهم من نغم ومن إيقاع.. فما هو جليل وما يتجه إلى الجرأة والشجاعة والبأس خاص بالذكور.. وما يرمى إلى النظام والنقاء الخاصين بالأنوثة للإناث.."[38].

وبالطبع فإن ما ينطبق على فن الشعر وفن الموسيقى ينطبق عند أفلاطون على بقية الفنون، فكل الفنون بما فيها فن النحت ينبغى أن تراعى الاتساق والنسب الهندسية الحقيقية وتستهدف ترقية الذوق الفنى والجمال وتنمية الحس الخلقى الخير لدى جماهير المتلقين سواء كانوا أطفالا أم كبارا، رجالا أم نساء.

وعلى نفس النحو، سار أرسطو على نهج أفلاطون فى التركيز على التربية الفنية والأخلاقية لأبناء مدينته المثالية الفاضلة وخصص لها الكتاب الخامس من كتبا "السياسة" حيث أكد ما كان سائدا فى عصره من أن للتربية أربعة عناصر هى "الآداب، والتربية البدنية والموسيقى والرسم" وكان تقييمه لهذه العناصر إجمالا "أن الأول والأخير منفعتهما محققة كما هى متنوعة فى الحياة كلها، والثانى باعتباره صالحا لأن يورث الشجاعة، أما الموسيقى فمتعتها مثار للشك فإنها ينظر إليها عادة على أنها ملذة ليس غير. غير أن القدامى كانوا يجعلونها جزءا ضروريا من التربية موقنين أن الطبع نفسه يطالبنا أن نحسن استعمال وقت فراغنا.."[39].

وقد توقف أرسطو مع كل هذه العناصر مبينا أهمية كل منها فى تربية المواطن الصالح للعيش فى مدينته المثالية الفاضلة. ولما كانت الموسيقى كما صرح من البداية مثار للشك لأن البعض اعتبرها ملذة على حد تعبيره، فإنه خصها بوقفة مطولة باعتبارها فنا يمكن أن يكون- على عكس رأى نقادها- "إحدى الوسائل إلى الفضيلة.. باعتبارها.. تؤثر فى النفوس بأن تعودها لذة شريفة وطاهرة.. وبمعاونتها على ترويح النفس تساعد على تكميلها"[40]. ومن ثم فقد أوصى أرسطو بدراسة الموسيقى والاستماع إليها

([38]) نفسه، (ك7)، الترجمة العربية، ص339.
([39]) أرسطو طاليس: كتاب السياسة، (ك5- ب2- فقرة 3)، الترجمة العربية لأحمد لطفى السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة 1979م، ص293.
([40]) نفسه (ك5- ب4- ف2)، ص298.

مستشهدا بقول "موزى" "أن الغناء هو اللذة الحقة للحياة"[41] ومعترفا "بالقوة الأدبية للموسيقى.. باعتبار أنها لا تسبب مللا قط، وأن اللحن والإيقاع لازمين للطبع الإنسانى"[42]. ومع ذلك فقد حذر أرسطو من استخدام بعض الآلات الموسيقية مثل المزمار وطالب بقصر استخدامه فقط لدى الفنانين، وعموما "فلا ينبغى– فى رأى أرسطو– أن يقبل من الآلات الموسيقية إلا ما هو خاص بتكييف الأذن وتنمية الذهن"، ولما كان "المزمار ليس آلة موافقة للأدب ولا يصلح إلا لإثارة الشهوات" فيجب أن يقصر استعماله على الظروف التى يقصد بالأولى إلى التقويم لا إلى التعليم"[43]. إذن فهو قد حذر من أضرار المزمار فى تعلم الموسيقى وقصر استعماله على الموسيقيين ليس فى العزف عليه واستعماله فى المقطوعات الموسيقية وإنما فى التعريف بأضراره فى مجال التقويم للآلات الموسيقية!!

وعلى ذلك يتضح مدى اتفاق أرسطو مع أفلاطون فى ضرورة أن يقتصر الاستفادة من الفنون فى مجال التربية على تلك الفنون الراقية التى تستهدف خير النفس وترقية الذوق وتنمية الحس الجمالى لدى الأبناء،إلا أن هذا لم يمنع أرسطو من أن يميز ببراعة بين نقد الفنون من هذا المنظور الأخلاقى الذى يركز على توظيف الفن لخدمة غايات أخلاقية، وبين ذلك النقد الفلسفى الذى يقوم على المعايير الفلسفية الجمالية التى تقدر دور الفنون فى إشباع النزعة الجمالية عند المتذوق للفنون المختلفة؛ فلقد نجح أرسطو فى تحقيق التوازن بين التأكيد على الجانب التربوى فى الفن فيما ظهر من حديثه عن دور الموسيقى والرسم فى تربية النشء فى كتابه "السياسة" وبين احتفائه بتنمية التذوق الجمالى لدى مواطن الدولة المثالية. إن الغاية التى كان ينشدها أرسطو من الفن لم تكن مقصورة فقط على تحقيق القدرة على حسن التصرف فى الحياة العملية، وإنما أيضا إشباع الحس الجمالى لدى البشر[44].

وفى ضوء هذا التوازن الذى اكتشفه ونجح فى إقراره بين الأثر الأخلاقى والأثر الجمالى فى تقويم الأعمال الفنية، أكد أرسطو على أن الصلة بين الجمال والخير فى العمل الفنى ليست مطلقة أو دائمة؛ وليس أدل على ذلك من تقويمه للأعمال المسرحية التى ميز فيها بين التراجيديا والكوميديا، حيث أوضح

([41]) نفسه (ك5- ب5- ف2)، ص300.
([42]) (ك5- ب5- ف2)، ص304.
([43]) (ك5- ب6- ف5)، ص305- 306.
([44]) د. أميرة حلمى مطر، نفس المرجع السابق، ص19.
وراجع: S.H. Butcher: Aristotle Theory of Poetry and Fine Arts, Dover Publication 1951.

أن التراجيديا محاكاة لكل ما هو سام وشريف ولكل فعل جليل وكامل، بينما الكوميديا محاكاة للأدنياء لكل ما هو مثير للسخرية والضحك من نقائص البشر.

ومن هنا كان تأكيده على أن البحث فى جمال العبارة أو العمل أو عدم جمالهما ينبغى ألا يقتصر على النظر فيما عمل أو قيل: أشريف هو أم خسيس، بل يجب أن ينظر أيضا فى القول أو الفعل لكسب منفعة أكبر أو لدفع مضرة أكبر[45].

وقد بنى أرسطو نظرية النقدية للعمل الفنى على أسس متعددة يمكن أن نرى من بينها البُعد الأخلاقى للعمل الفنى ولكن الغالب عليها هو مراعاة الأصول الفنية والجمالية للعمل الفنى لدى صاحبه؛ لقد عدد أرسطو المآخذ التى يمكن أن تؤخذ على كتاب العمل الفنى أو الأدبى بوجه عام وعلى الشعراء بوجه خاص وحصرها فى أربعة أنواع هى "مخالفة العقل، إيذاء الشعور، التناقض، الخروج على أصول الصناعة"[46].

إن للفن عند أرسطو معايير جمالية ينبغى أن يلتزم بها الفنان إلى جانب المعايير الأخلاقية وبقدر ما يحقق الفن المتعة والتطهير للمتلقى بحيث يخلصه من الانفعالات الدنيئة ويقربه من العيش وفقا لعقله الواعى يكون فنا جيدا. ومن هنا نفهم على سبيل المثال تفضيله للتراجيديا على الكوميديا. إذ على الرغم من أهمية الكوميديا والتزام الفنان فيها بالمعايير الجمالية للعمل المسرحى أو التمثيلى الجيد إلا أنها لا يمكن أن ترقى فى هذا الصدد إلى أهمية التراجيديا التى يكون التزام الفنان فيها أكثر بالمعايير الجمالية والأخلاقية للعمل الفنى على حد سواء.

([45]) أرسطو طاليس: كتاب الشعر (25)، الترجمة العربية، ص144.
([46]) نفسه، ص152.

خاتمة :

والحقيقة التى ينبغى أن نؤكد عليها فى النهاية هى أن أفلاطون وأرسطو رغم اختلافهما المذهبى، حيث "المثالية المفارقة" غالبة عند أفلاطون، بينما النزعة الواقعية هى الغالبة عند أرسطو، إلا أنهما معا يعدان أقرب إلى الاعتقاد بالدور الأخلاقى والتربوى والاجتماعى للفن، ومن ثم فقد حرصا معا على وضع الحدود التى تؤطر العمل الفنى بحيث تجعله عملا يستهدف الخير موضوعا وغاية مع شدة حرصهما معا على أن تتوافر المعايير الجمالية فى العمل الفنى، وهذه المعايير أساسها الإلهام الإلهى عند أفلاطون حتى ينجح الفنان فى محاكاة الحقيقة بدلا من محاكاة الظلال فى عالم الطبيعة الواقعى، وأساسها عند أرسطو المحاكاة للطبيعة فى صورتها الحيوية المتحركة دوما نحو الكمال لتحقيق أسمى الغايات وخيرها.

وبوجه عام فقد حرص الفيلسوفان العظيمان على التأكيد على أهمية الفنون كلها وعلى دورها فى الارتقاء بالحس الجمالى والسلوك الأخلاقى للإنسان، وكم أود أن يلتفت صناع الفنون اليوم وكذلك نقاده إلى استعادة هذه النظريات الرائدة والالتزام بالمعايير التى وضعها كلا من أفلاطون وأرسطو سواء فى العمل الفنى أو فى نقده؛ إذ أن حال الفنون اليوم فى مصرنا الغالية ووطننا العربى الكبير لا ترضى أحدا؛ حيث يتصور فنانو اليوم أن نقل أسوأ ما فى الواقع هو المعيار الأهم فى العمل الفنى الجيد! بينما الحقيقة أن أردأ المحاكاة هى كما قال كلا من أفلاطون وأرسطو هى تقليد الواقع ونقله كما هو، فما بالك بأن نركز فى ذلك على نقل أسوأ ما فى الواقع وأحط وأدنى ما فيه لنجعله النموذج الذى يحتذى لدى المتلقى وخاصة المتلقى غير الواعى!

لقد شوه فنانو اليوم الفن بهذا التصور الخاطئ لمعنى العمل الفنى ولقيمته بحجة الواقعية "الساذجة" التى يتبنونها! وشوهوا صورة بلدهم وأعطوا بهذا الفن الرديء أسوأ صورة للقدوة التى كان يتمناها شبابنا فإذا هم يجدونها لدى البلطجى والحرامى والمدمن.. الخ هذه النماذج السيئة التى ينتصر لها فنانو اليوم فى السينما والمسرح والرواية. والحقيقة أن الفن الوحيد من بين الفنون المعاصرة الذى نجا من هذا المستنقع الفنى هو فن الشعر؛ إذ لا يزال الشعراء فى بلادنا ينشدون فى أشعارهم الخير والحق والجمال. فتحية لهم رغم أن الزمان لم يعد زمانهم والعصر لم يعد عصرهم. وما أتعس اللحظة التى يغيب فيها قيم الحق والخير والجمال فى مجتمع ينشدها الناس فيه، بينما نخبتهم الفنية لا تزال مصرة على ضياع هذه

القيم النبيلة من الأعمال الفنية، مصرة على تأطير "الفساد" و"القبح" بكل صورهما. إننا نناشدهم بحق قيم المواطنة فى هذا الوطن الشريف أن يرتقوا بأعمالهم الفنية ليكونوا رسلا لنشر قيم الخير والجمال حتى لو لم يروها فى الواقع الذى يحرصون على نقل أسوأ ما فيه، لاستبداله بواقع أفضل تسوده هذه القيم الإنسانية الراقية. وهنا سيقود الفن المجتمع نحو التقدم والرقى الحضارى بدلا من أن يجره إلى الوراء، وعندئذ سنقول بحق مع أفلاطون وأرسطو بأن لدينا فنا جيدا يستحق الإشادة ويستحق أن نحتفى به. ويالیته لا يتأخر كثيرا، إذ أن الواقع يتجمل مع مبشرات المستقبل الواعدة فى المجالات الاقتصادية والسياسية ومن ثم الاجتماعية، فهل يبشرنا الفنانون برسم صورة لهذا المستقبل الواعد بتحقيق المقولة الشهيرة "تفاءلوا بالخير تجدوه"!